# فردريك اوزنام

## ١٨١٣ - ١٨٥٣

بقلم الاب اغاطيوس سركيس
من الرهبانية الشويرية

احتفلت « شركة القديس منصور دي بول » هذه السنة في فرنسا واوربا وسائر انحاء العالم المسيحي ، بذكرى مرور المئة سنة الاولى على وفاة مؤسسها فردريك اوزنام ( ١٨١٣ — ١٨٥٣ ) .

وهذه الذكرى حاضرة ولا شك في اذهان قراء المشرق . كما ان حياة هذا الرجل العظيم ليست ، على ما نظن ، مجهولة لديهم . لذلك لم يكن من حاجة الى الدخول في تفاصيل تلك الحياة الحافلة بجلائل الآثار والعبر . فنكتفي هنا بتلخيص خطوطها الاساسية الكبرى التي لا بد منها لفهم سياق الكلمة التالية . وقد جربنا فيها ان نستقصي عن الروح الذي سيطر على حياة اوزنام ، ووجّه جميع اعماله ، وكان ميزة صفاته وواسطة العقد في فضائله والدعامة الكبرى للاخلاق السامية التي رفعته الى درجة عالية من الكمال الانساني والمسيحي . عنينا بها فضيلة الايمان .

— ١ —

ولد فردريك اوزنام في ٢٣ نيسان ١٨١٣ في مدينة ميلانو وهي اذ ذاك مقاطعة افرنسية وابوه ضابط في الجيش المرابط فيها .

وفي سنة ١٨١٦ عادت عائلته الى مسقط رأسها في مدينة ليون . وبلاد فرنسا ما تزال تفور بالثورات والانقلابات .

ومن ١٨٢٣ الى ١٨٢٩ تلقى دروسه الثانوية في الكلية الملكية في ليون .

وفي ١٨٣٠ قرر والده ان يعلمه الحقوق وادخله مكتب احد المحامين للتمرس . وفي هذه السنة سقط حكم شارل العاشر وقام على العرش مكانه لويس — فيليب .

وفي ١٨٣١ بدأ حياته الادبية والاصلاحية بمقالات في دحض مذهب السان —

سيبونو . وقد نشرها في ما بعد في كتاب مستقل فكانت ، مع صغر سنه، مثار اعجاب الادباء .

وفي هذه السنة انتقل الى باريس لاتمام دروس الحقوق . وكان من حظه ان تعرف بالعالم المشهور اندريه—ماري امپير Ampère الذي انزله في بيته واسكنه غرفة ابنه المتغيب اذ ذاك في المانيا . . . وقد كان لمعاشرة هذا العالم العظيم اثر هام في نفسه .

وفي السنة التالية ١٨٣٢ انشأ مع بعض رفاقه مؤسسة «محاضرات التاريخ» بقصد توسيع معلوماتهم الصحيحة والمناقشة المفيدة في ما هم فيه من دروس.

وفي ١٨٣٣ . وكان قد استوعب في نفسه حاجات الشبيبة المثقفة ، التمس من رئيس اساقفة باريس انشاء محاضرات فلسفية دينية في كاتدرائية نوتردام. وفي هذه السنة عينها ، وللغاية نفسها، انشأ مع ثمانية من رفاقه شركة «محاضرات الرحمة » التي اتخذ لها في ما بعد القديس منصور دي پول شفيعاً وسماها باسمه : « شركة القديس منصور دي پول » .

وفي ١٨٣٥ نجحت مساعيه الموفقة لدى السلطة الروحية . وارتقى صديقه الاب لاكوردير منبر نوتردام مفتتحاً محاضراته الشهيرة. فكان ذلك فتحاً عظيماً للكنيسة ونصرًا للنفوس الطيبة ومصدر غبطة وتعزية لاوزنام . وفي هذه السنة نال شهادة الليسانس في الآداب . كما نال سنة ١٨٣٦ شهادة الدكتوراه في الحقوق .

ثم في ١٨٣٩ ، قدم لشهادة الدكتوراه في الآداب اطروحتيه عن « دانتي والفلسفة المسيحية » و « القديس فرنسيس دي سال وتجديد اللغة الافرنسية » فأحرز نجاحاً عظيماً رغم ما في موضوعه المزدوج من اشواك .

وعلى اثر ذلك سُلّم اليه تدريس «الحقوق التجارية» في مدينة ليون . فلمع نجمه في التعليم . وبدأ حملاته في الاصلاح الاجتماعي .

وفي ١٨٤٠ خرج الاول في مباراة الـ (Agrégation) التي انشأتها الحكومة سنة ذاك لاختيار الاساتذة الاكفاء لجامعتها . وكان من نتيجة ذلك تعيينه استاذًا للآداب الاجنبية في السوربون ، وهو لا يزال في السابعة والعشرين من عمره . وبدأ سلسلة تلك الدروس التي نالت رغم وعورة موضوعها نجاحاً عظيماً ورفعت شهرة صاحبها فوق جميع زملائه .

وفي ١٨٤١ بعد ان تزوج وقام برحلة الى ايطاليا، استقر نهائياً في باريس.
وفي ١٨٤٦ بدأ المرض يتعبه واضطره الى اتخاذ سنة راحة في ايطاليا.

وفي ١٨٤٨ اشترك في نشر جريدة «العصر الجديد» (Ère Nouvelle) وانشأ افتتاحيتها الاولى داعياً الى الاصلاح الاجتماعي الحقيقي.

وفي ١٨٥٠ عاد مرضه الى اتعابه. واضطره الى التنقل في سياحات مختلفة لانتجاع الراحة وزيادة المعارف.

وفي ١٨٥٣، بعد ان قضى شهوراً في ايطاليا، احس بقرب الاجل. وهو في الاربعين من عمره. فطلب الرجوع الى وطنه. ولكن الموت داهمه وهو بعد في مرسيليا، في اوج الشهرة واختمار الفكر والحاح الرغبة في العمل. فكان لموته هزة ألم عميم.

وفي سنة ١٨٥٥ طبعت آثاره كاملة في بضع عشرة مجلداً مع مقدمة بقلم صديقه جان — جاك امبير (Ampère).

— ٢ —

لا شك ان اسمى الفضائل وأعظمها، كما يقول بولس الرسول، انما هي المحبة. فهي وحدها تبقى على الزمان والابدية، بينما كل فضيلة سواها تقف وتزول على عتبة ابواب السماء.

ولكن ما هي المحبة بدون الايمان؟

وكيف يحب الانسان ما لا يعرفه؟ فالايمان اذن اساس معرفة الله وصفاته السامية، والطريق الوحيد الى محبته ومحبة القريب والخلائق كما يرضى هو.

والى ذلك ولا شك نظر المجمع الترينتيني المقدس حين شبه الايمان في حياة الانسان بالجذور في حياة الشجر.

وفي الواقع ان الشجرة لا تنمو وتخصب وترتفع عالية، واسعة الاغصان، غضة الاوراق، الا وجذورها عميقة في الارض تمتص منها غذاءها وتوزعه باعتدال على سائر الاجزاء.

والنفس السامية الرغائب، المتطلعة الى العظائم، المتشوقة الى العمل والبناء، والاصلاح يجب ان يكون الايمان اساساً لبنيانها. وجذراً مخصباً يغذي اغصانها.

بل هو الجو الرفيع الذي يجب ان تعيش فيه يوماً فيوماً وساعة فساعة حسب قول بولس الرسول: «ان البار من الايمان يحيا».

فالايمان اذن اعظم قوة للانسان في حياته. وامتن صلة بين الخالق الكلي القدرة والمخلوق الكلي الضعف، بين مصدر الخير واداة توزيعه، بين الينبوع الغزير والنفس العطشى. وهو الى ذلك، وبسبب ذلك، اكمل فعل عبادة واكرام يؤديه العقل البشري القاصر الواعي الى الله مصدر كل فهم وغاية كل عقل. لانه خضوع مطلق وثقة مطلقة واعتراف بعدمنا امام الوجود المطلق. وهذا الايمان يظهره الرجل العالم الواسع المدارك مقرًا لا بما يضاد العقل بل بما يفوق قدرته من اسرار وغوامض ومعارف تجيء عن طريق الوحي والسلطة لا عن طريق القياس والاختبار والحس، تمجيد للعقل الالهي والعقل الانساني في آن واحد.

٥

وقد كان هذا الايمان المتين الرصين باديًا بين فضائل اوزنام العديدة. كالقائد الجبار المنتصب في وسط معسكره يحميه ويشيع فيه القوة والنشاط. بل كان كما قال عنه لاكوردير «الرباط السامي والمبدأ الوحيد للفضائل التي مارسها والصداقات التي نعم بها».

ورثه عن اسرته التقية. وقد اثر عن احد اجداده، وكان استاذ رياضيات، قوله، في معرض مشاحنات فلسفية: «على اللاهوتيين ان يتباحثوا، وعلى الكنيسة ان تحدد، وعلى استاذ الرياضيات ان يبلغ الدماء على الخط المستقيم» (اشارة الى القاعدة الهندسية المعروفة من ان الخط المستقيم هو اقرب طريق بين نقطة واخرى).

وأتاه نجده وارادته. فاذا استثنينا فترة شك قصيرة انتابته ابان درسه الفلسفة وتغلب عليها بمساعدة استاذه، نراه يحتفظ بصفاء ايمانه مدى حياته كلها بل ينميه يوماً عن يوم ويحميه من غيوم الكفر والريب والاضمحلال. وقد قال يوماً انه لم يكن في الدنيا شيء اغر عليه من ايمانه ووطنه ومن خدمة الحقيقة وعمل الخير.

وذلك رغم الصعوبات الكثيرة في طريقه. فقد نشأ في عصر اجتاحته

الروح الفولتيرية الملحدة، وهدمت الثورة ما تبقى في النفوس من العقائد الالهية. ثم جاء باريس وهو شاب تقي نقي حي، فاذا به في محيط فاسد فاسق. وسمع محاضرات اساتذة السوربون وكلها طعن في الدين وتقويض لاركان الايمان. فاعتصم بقوة ارادته وحافظ على كنزه الروحي والاخلاقي. ولم يكن له من تعزية في تلك المحن اقوى من اللجوء الى محبة الله والثقة برحمته وعنايته.

بل ان المحن والصعوبات نفسها انما كان يتغلب عليها بالالتجاء الى تعزيات الايمان ومحبة الله. ففي عزلته في باريس بعد فراق بيته وذويه، في حزنه بعد موت كل من والديه، في مكافحة الضلال بين معلميه وأقرانه في السوربون، وخاصة في مرضه الاخير واقتراب ساعة اجله الذي سيوقف مجرى نشاطه ويحرمه مواصلة الجهاد والخدمة. دائماً كان يجد بقرب الله وفي شدة ايمانه برحمته القوة والعزاء والسلوان.

وكان يعلم « ان ركن الايمان هو السلطة وليس العقل. وان العقل كلما مشى قدام السلطة الالهية، ضل سبيله ». ولذلك وضع رقبته تحت نير المسيح. واخضع عقله لتعاليم الوحي والسلطة ومشى الى هدفه مخصصاً حياته ووقته وفهمه وعلمه لخدمة هذا الايمان. وحفظه كاملاً لا يتجزأ. « حاشا لي ان انكر واحدة من عقائد ايماني الذي اضحي بحياتي في سبيله. اجل الى حتى تضحية الحياة، حتى الشهادة. والشهادة كما يعرفها هو انما هي اعطاء الذات طوعاً، اعطاؤها كاملة، اعطاؤها حتى الموت يوماً فيوماً في سبيل محبة الله وخدمته. افلم يهدم صحته بطول الدرس والتأليف والالقاء قبل ان يبلغ نصف عمره ؟ وقد اضطرته الظروف يوماً الى اعلان ذلك في وجه بعض من لم يفهموا روحه. قال: « اكانت صحتي تهدمت في الثامنة والثلاثين لولا رغبتي في الدفاع عن المسيحية؟»

على ان ايماناً كهذا لا يقوم ولا يدوم بلا تغذية وعناية. وقد كان اوزنام يغذيه بمطالعة الانجيل والتأمل في معانيه السامية كل صباح. كان يغذيه بمطالعة تاريخ الكنيسة المجيد واعمال احبارها العظام. وقد كتب يوماً الى احد زملائه من اساتذة السوربون: « لو انك لم تكتف بالوقوف على عتبة المسيحية، بل عملت مثلي، فمشيت في داخلها، وقضيت ثمانية عشر عاماً في درسها، وغذيت نفسك باقوال هؤلاء الملافنة العظام من آباء الكنيسة لوجدت في ذلك ثروة

تليق بعقلك السامي ، ولما جعلت من التسامح والحرية والاخاء ثمرة من ثمار الثورة الافرنسية . فهذه الفضائل انما نزلت من على اقدام الصليب » .

كان يغذيه بالصلاة الوضيعة العميقة حتى اصبحت حياته صلاة متواصلة . فلم يذهب الى القاء محاضرة او درس الا بعد ان ركع وصلى لئلا يتسرب على لسانه شيء من الضلال . ولم يدخل كنيسة الا جثا على ركبتيه واستغرق زمناً طويلاً في بحران صلاته يناجي الله بحرارة ايمانه .

كان يغذيه بالاشتراك بسر الايمان الاعظم . فيحضر القداس ويتناول القربان المقدس كلما استطاع .

اما مجاهرته بايمانه فتذكرنا بمواقف كبار القديسين من قبله . وهو القائل : « اني سأظل متمسكاً بأعمدة الهيكل حتى ولو تهاوت فحطمتني في سقوطها » اكانت اقوى من هذا الاعلان عبارة القديس اغوسطينوس : « انا مع روما حتى ولو قادتني الى الجحيم . » ؟

وذلك انه وجد من علمه مثبتاً لايمانه . « فتش تجد الله في اعماق قلب العلم » افكانت نفسه السامية ترى بعين الروح تلك الحقائق العويصة بخلاف الاعتياديين من المؤمنين ، فيعلن مع بولس الرسول : « اني اعارف بمن آمنت » ومع يوحنا الحبيب : « الذي رأيناه ولمسناه وسمعناه به نبشركم »؟ .

حقاً هذا هو الايمان الذي طلبه المسيح من تلامذته وقال عنه انه ينقل الجبال . وان ما عمله اوزنام في نفوس معاصريه كان اعظم من نقل الجبال .

— ٣ —

ومثل هذا الايمان الراسخ يجر وراءه ، ولا شك ، ثقة بالعناية الالهية الابوية المحبة التي بدون ارادتها لا تسقط شعرة من رؤوسنا ولا يصيبنا ذرة من خير او شر ؛ واستسلاماً بنوياً فرحاً لتدابيرها السامية حتى ما كان منها غامضاً صعب الفهم لا يسوغه عقلنا البشري الضعيف .

ففي سنة ١٨٣٢ انتشر في باريس وباء الكوليرا بسعة مرعبة حتى كان معدل الوفيات فيه نحو مئة وثلاثين شخصاً يومياً . واندفع اوزنام في خدمة المرضى دون تحفظ او خوف . وظل مع ذلك بعيداً عن الخطر ولم يقترب الوباء من بيت امبير حيث كان يسكن . فنسب ذلك الى رحمة العناية الالهية .

واستشهد بقول المزامير : « يسقط عن جانبك ألوف وعن يمينك ربوات . واليك لا يقترب السوء . »

ومن اقواله :

ان تدابير الله تتم على توالي الزمان . واعظم الناس حكمة هم من تركوا يد الله تقودهم . فلنعمل اذن ما نستطيع ولنترك الباقي لعنايته . قليلاً من الثقة بالآب السماوي الذي يدون ارادته لا تسقط شعرة من رأسنا ».

وحين كانت المعركة حامية حول تعيينه استاذاً في السوربون ، والمنافسون يثيرون عليه الحفائظ ، وهو من هو في عقيدته المسيحية . خاف ان يخسر هذا المركز الممتاز الذي يستطيع فيه ان يخدم الله وديانته . ولكنه عاد ورمى بنفسه بتواضع بين يدي الله قائلاً : « اني ارغب ان يستلم الله هو نفسه زمام هذه القضية الهامة . واذا رأى ان فشلي فيها اكثر فائدة لخلاصي . فلا اطلب لذاتي سوى الرسوخ في عقيدتي والاطمئنان في داخلي . حتى ولو ظلت اسباب معيشتي غير مؤمنة » . ومن اقواله :

— لقد عوقبنا نحن الكاثوليك لاننا وضعنا مجدنا في كبار كتابنا اكثر من اتكالنا على قدرة الله . ان مجدتنا هي من فوق .

— وفي اشد الازمات كان يردد : « لا اعلم الى اين تقودنا يد الله . ولكني واثق انها تسير بنا الى حيث ترى موافقاً » .

— وفي مرضه الاخير ، وقد ازدادت نفسه سمواً بقدر انحطاط قوى جسده . كان يردد بثقة وثبات : الهي . اني اريد كل ما تريده وما دمت تريده ومثلما تريده ولانك تريده

وذاك هو الاطمئنان في قلب الله والتسليم التام لمشيئته الابوية الذي ليس وراءه غاية .

— ٤ —

ونتيجة طبيعية اخرى لذلك الايمان : التواضع .

قال الاب لاكوردير : « لقد تعلم اوزنام فلسفة صحيحة تجعل من المسيحي رجلاً حكيماً . ومن الحكيم انساناً وديعاً لا يشمخ بعلم ولا بفضيلة .

تلك كانت خلاصة روحية اوزنام . فانه رغم كل ما امتاز به من عمق

المعرفة ، وسمو المكانة ، وسعة التأثير في عصره، وعظم المشاريع التي حققها. والخدم التي اداها ، ظل وديعاً متواضعاً يعرف ان الخير والبركة هما من عند الله وان الانسان ليس سوى اداة يستخدمها الله متى شاء وكما يشاء .

ولم يكن تواضعه زائفا او متصنعاً فينكر ما لديه من مواهب وقوى وما يتم على يده من اعمال ـ بل ـ مع اقراره بذلك ، رده الى مصدره الحقيقي . واعترف « ان كل موهبة كاملة انما هي من فوق من لدن ابي الانوار ».

وهكذا رأيناه ينسب كل نجاح حازه او خير عمله الى رحمة الله ومحبته والى سعي اصدقائه وعنايتهم وتسامحهم ازاء ضعفه .

ورأيناه يرفض مرتين رئاسة الشركة التي اسسها وجعلها هدف حياته وغاية امانيه ، مكتفياً فيها بالموضع الخفي المتعب .

ورأيناه يرفض الحاح اصحابه في ترشيحه للنيابة عن مدينة ليون مدعياً انه دون ذلك قدرة ومعرفة وعافية .

ويستاء من اسراع عمدة الشركة الى نشر خطبه الرائعة بحجة ان ليس فيها ما يستحق النشر . ولكنه يعود فيستسلم عندما يقال له ان ذلك مفيد لانشاء فروع جديدة .

ورأيناه ، وهو على فراش الموت ، يصرح انه لم يعمل قط لمجده الشخصي ولا لسماع مديح الناس . بل لخدمة الحقيقة فقط .

وبقدر ما كان شديداً على نفسه قاسياً في محاسبتها كان رحيماً متسامحاً في معاملة القريب .

وبقدر ما كان مقامه يرتفع في المجتمع وعند العلماء ، كان تواضعه ينمو وحبه للفقراء وخدمتهم يزداد، ويجاهر انه يستفيد من زيارتهم اكثر مما يفيدهم.

وهذا التواضع الذي عاشه يريده لشركته باسرها ايضاً ، لعلمه ان الله يحارب المتكبرين ويولي المتواضعين نعمة . كتب سنة ١٨٥٣ من ايطاليا يصف لاصدقائه ازدهار فروع الجمعية هناك وختم بقوله : « لكن مهما عظم نجاح الشركة يجب الا نتكبر. بل بالعكس يجب ان يحملنا ذلك على الاتضاع . ان عشب الحقل ، مهما امتد واتسع ، لا يتكبر ولا يعتبر انه صار سنديانة . ونحن مع ازدياد عددنا وازدهار عملنا ، لنبقَ على بساطتنا وضعتنا . ولا نقابل ذاتنا بالمؤسسات العظيمة التي انماها الله في كنيسته » .

ويذهب الى ابعد من ذلك بكثير فيزعم مرارًا ومرارًا في رسائله « ان امراضه انما جاءت قصاصاً لخطاياه » .

وقد نعجب من هذا لدى علمنا مـا كانت عليه حياته من الطهر والبعد الشديد عن الخطيئة والمسير الدائم في جانب الفضيلة والمحبة . وقد يخطر لنا ان في مثل هذه المزاعم شيئاً من التصنع او الرياء . والحقيقة ان مثل هـذا التعبير معروف عند كبار رجال الله . حين اسفهم على اهانة الله والتقصير في الواجب .

فالاسف الخطيئة لا يقاس فقط بفظاعتها وثقلها . بل يقاس ايضاً بدقـة ضمير مرتكبها . وكلما تعمق الانسان في معرفة الله عظمت في نظره شناعـة الخطيئة . — واذا اعلن قديس انه اعظم خاطئ ، فلا يعني ذلك انه احصى جميع الخطأة وسبر غور ضمائرهم وقاس خطاياه بخطاياهم . ولكنه يؤمن مخلصاً انهم لو نالوا ما نال هو من نعم لما سقطوا مثل سقوطه .

واذا كنا نحن لا نشعر هذا الشعور ولا نستطيع تقديره ، فلأننا لا نزال اطفالاً في الايمان . قاصرين في المحبة ، لا نعرف ان نقيس عظمة الله وحقارتنا .

— ٥ —

وقد يستطيع الانسان ان يتضع ويخشع امـام الله الخالق الاعظم المالئ الكون بوجوده ورهبته وجلاله . ولكن التواضع الصحيح انما يبدو في الخضوع والاتضاع امام اشخاص هم في الظاهر ناس مثلنا ، وربما اعتبرناهم اقل منـا قدراً . ولكنهم في الحقيقة يحملون سلطة الله لتسيير النـاس في سبيل الخير والصلاح والخلاص . — ذلك شأن السلطة الكنسية في العالم

وقد امتاز اورنام طيلة حياته بالطاعة الوديعة للكنيسة وممثليها . والخضوع لتعليماتهم واوامرهم بكل حب وسرور .

فلم يرضَ قط ان ينشر مقـالاً او كتاباً الا بعد تثبته من رضى السلطة الكنسية عنه .

وكان احترامه للكهنة والاساقفة ولكل ذي سلطة دينية بالغاً آخر الحدود .

وكان جل ما يرمي اليه ان يدافع عن امم الكنيسة وتاريخها وآبائها . حتى لقد اعتبر ذلك دعوة خاصة به لا يستطيع ان يتهرب منها .

ومن اقواله في هذا المعنى :

— يجب ان يظل سلطان المسيح حيث وضعه المسيح : في يد الاساقفة .

— نحن ابناء الكنيسة قبل ان نكون ابناء السوريون . وليس في ذلك عضاضة . ولن اكون خائفاً ولا جباناً .

وحين زار البابا بيوس التاسع على اثر انتخابه كتب يقول: . . . ثم قبلت خاتمه . هذا الخاتم الذي وقع منذ ثمانية عشر قرناً ذلك العدد العظيم من الاعمال والآثار الخالدة .

وحين حرمت الكنيسة مؤلفات الاب لامنه . وحين حرمت كتاب جوسلين للامرتين ، وكانا من اعز اصحابه ، لم ينظر الى الامر نظرة بشرية انانية . بل وقف بجانب السلطة ، ونصح لصديقيه ان يتلافيا الشر الذي اتياه ، ولم يعد حديثه عنهما الا عاطفة رحمة واشفاق .

وهو امر يقتضي في العصر الفواتيري الذي عاش فيه قوة ارادة ، وصلابة عقيدة وشدة في الجرأة لا حد لها .

— ٦ —

ذكرت الجرأة . وهي في الواقع من اظهر مزايا هذا الرجل العظيم ، ومن اطيب ثمار ايمانه الحي العامل العاقل . وذلك رغم ما كان عليه من الحياء والخجل الشديد في طبعه .

انه اخذ على نفسه ان يحفظ الايمان والفضيلة في نفسه ، وان يعلن هذا الايمان مهما كلفه الامر وان يعيد ملك الفضيلة وسلطان المسيح الى نفوس معاصريه . فيجب الا يقف دون ذلك عائق من حياء بشري او تراجع امام الخصوم .

وليست جرأة اوزنام جرأة الرجل الضعيف الذي يغطي ضعفه بستار من الوقاحة القاسية النابية ؛ ولا جرأة المتكبر الذي تأبى عليه طباع السوء ان يقر بضعف او جهل او تقصير، كما تأبى ان يحتمل الى جانبه ذا مقام او معرفة او نفوذ .

وانما هي جرأة المؤمن الواثق من امتلاك الحقيقة ، السخي في توزيعها ، المتفاني في حبها حتى لا يرضى ان يرى في خدمتها « خائناً ولا جباناً » .

وهذه الجرأة مارسها كل حياته ، منذ اول شبيبته ، اذ انبرى على غضارة

عوده ، يفند آراء سان سيمون الاجتماعية ويبين ما فيها من شطط وسوء عاقبة. وكانت هذه البدعة تكاد تعم لولا ان قيض لها الله هـذا الشاب الطموح فوقف في وجهها .

وكثيرًا ما اسكت اترابه الشباب المفاخرين بكفرهم او فجورهم . بل وكثيرًا ما تعرض لمن هم اكبر منه سنًا ومقـامًا فافهمهم برداعة وصلابة ان الانسان لا يجوز له المباهاة والمجاهرة بالحاد او تقصير .

اما معاركه في السوربون ، سواء تلميذًا او استاذًا . فقد كانت صفحة من صفحات الجهاد الجميل . وهو الذي تجرأ امام المئات من رفاقه ان يرد على الاستاذ جوفروى في تعاليمه الكفرية وان يناقشه الحساب في وسط محاضراته ؛ وان يجبره على الاقرار بالحق وتعليم الصواب ؛ وان يطن عـلى مسمع جميع الحضور ان اتجاه الفكر في السوربون قد تغير منذ دخلها هذا الطالب العنيد في عقيدته .

وما كاد يستلم منبر التعليم حتى جعله منبر محاماة عن المبادئ الصحيحة ، وجهر بالايمان المسيحي المضطهد ، واقناع بان السلطة للوحي قبل ان تكون للعقل وانه ليس من تناقض بينهما .

وفي ذكر المواضيع التي اختارها لاطروحاته وتعليمه وكتبه اكبر دليل على ذلك . فهو لم يخش ان يتقدم لدى الجامعة باطروحة عن الفلسفة المسيحية في شعر دانتي ؛ ولم يخش ان يثبت ان القديس فرنسيس دي سال اعظم ذي فضل عـلى اللغة الافرنسية ؛ وان القديس توما الاكويني اصدق من مونتسكيو في احكامه الاجتماعية . وهكذا . ومن الغريب انه كان يسيطر على سامعيه ببلاغة واخلاص فائقين . حتى ان احد ممتحنيه في شهادة الدكتوراه هتف في وسط الجلسة بعد سماع محاضرته : « يا اوزنام ، لا يمكن ان يكون انسان ابلغ منك الآن ! » .

قيل له يوماً وهو داخل الى محاضرته ان بعض الطلاب كتبوا على باب مدرسته : « مدرسة صف اللاهوت » . فلما انهى محاضرته ختم بقوله : « ليس لي الشرف ان اكون لاهوتيًا . ولكني افاخر باني مسيحي مؤمن واضع كل قوتي في خدمة ايماني » .

على ان الجرأة في اعلان ايمانه والمحاماة عن عقيدته لم تعن في نظره القسوة

في معاملة الخصوم والضالين بل كان من مذهب القديس فرنسيس دي سال في ان جرة من الخل لا تفعل في التقاط الهوام فعل نقطة من العسل .

وعلى هذا كان خلافه مع الكاتب الكاثوليكي الشهير لويس ڤليوت الذي كان مر اللسان قاسي القلم على الخارجين عن الدين . ولذا اتهم اوزنام بموالاة اعداء الكنيسة والتسامح معهم . وقد اعلنت السلطة في ما بعد واقر الواقع ان الحق كان بجانب اوزنام .

كما ان غيرته وجرأته لم تكن تعصباً ذميماً ورجعية تضيق بكل فكر جديد . فقد كان في مقدمة من يقبل الافكار التقدمية الصحيحة والدعوة الى الحرية التي تتفق مع الانجيل . وما اكثر الحريات التي تتفق مع الانجيل . بل التي تنبثق من تعاليمه كما ينبثق الماء الصافي من الينبوع الغني السخي .

وقد صدقت شهادة لا كوردير بانه كان من العدد القليل من كتّاب الكاثوليك في تلك الحقبة الذين ظلوا موثوقاً بصدق عقيدتهم حتى النهاية وكانوا مجدًا للكنيسة .

— ٧ —

شُهر اوزنام باعمال الرحمة والمحبة المسيحية وبتأسيس شركة القديس منصور دي پول وسهره مدى حياته على تقدمها وتوسعها ، اكثر مما شهر بسائر فضائله وصفاته واعماله . ولا عجب وهو القائل — من بين الكثير من اقواله — : « وددت لو طوقت الدنيا باسرها بشبكة من اعمال المحبة » .

والكلام على ذلك المظهر من حياته يستغرق من الصفحات اكثر مما يسمح المقام الآن . وانما نذكر هنا كلمة واحدة من كلماته تريننا ان عمل الخير لم يكن في نظره الا نتيجة من نتائج ذلك الايمان العظيم الذي كان يغمر قلبه المسيحي الكبير ؛ وان كل مؤسسة اجتماعية او خيرية تظل ضئيلة في هدفها ووسائلها ازاء «شركة» اوزنام التي تضع الفقير الى جانب الغني في كفة موازية لانه مثله ابن الله الآب موزع الخير والصلاح .

قال في احدى رسائله : « هدفنا الرئيسي لم يكن مساعدة الفقير فقط . لا . لم يكن ذلك سوى واسطة . هدفنا الرئيسي كان حفظ ذاتنا ثابتين في الايمان الكاثوليكي ونشره لدى القريب بواسطة اعمال المحبة » .

- ٨ -

منذ مطلع الشباب — كان اذ ذاك في السابعة عشر من عمره ! — وضع اوزنام منهاج العمل الذي قرر ان يتبعه في حياتـه للدفاع عن الايمان المسيحي واعادته سليماً الى نفوس ابناء عصره .

وليس يهمنا ان يكون استطاع تحقيق ذلك المنهاج بكامله او في بعضه . واقل ما يمكن ان يقال فيه ان تنفيذه يقتضي جهود عشرات وعشرات من الاشخاص المجاهدين المتفانين اذا عملوا فيه حياة كاملة . فكيف به وهو فرد لم يعش نصف عمره !.

الذي يهمنا ان ارادة هذا الرجل الجبار ومقاصده السامية لم تكن مجرد رغبات نظرية باطلة . وانما كانت ارادة مدركة فعالة تعرف القصد وتمضي اليه دون تلكؤ مهما كلف من تعب . وقد عملت منه رجل عمل قلما عُرف مثله . اذ في نظره «لا يحق للمسيحي ايّاً كان ان يقضي حياته في الراحة بطالاً يداه في جيوبه لا يعمل شيئاً في سبيل دينـه وعقيدته ، بينما يرى الجنود يموتون في الخنادق في سبيل الوطن ، والمرسلين يعانون الذل والشقاء في البلاد النائية في سبيل الحضارة . »

ومن اقواله الجديرة بتأمل ابناء عصرنا : « يجب على الكاثوليك الا يضيعوا الوقت في التباغض والتناحر في سبيل حزبيات ومسائل تقبل الجدل ولا يضر في جوهرها خلاف ظاهري » .

وقد عمل وجد وجاهد . ولم ينل النجاح الذي ناله الا بالتعب والنشاط . كان يقضي يومه . واصلاً الليل بالنهار في تهيئة دروسه وكتابة مقالاته وتوجيه رفاقه وتلامذته . حتى هدم صحته في سنوات قليلة . ولو انه احب ان يعيش عمراً طويلاً في الراحة والرفاهية لما مات في الاربعين ، والكنيسة في اشد الحاجة الى امثاله .

ولكن لا بأس . ان حبة الحنطة ان لم تمت بقيت وحدها . ولكنها ان هي ماتت تبعث حياة اخصب وتعطي بدل الواحد ثلاثين وستين ومئة .

- ٩ -

على ان الله تعالى مصدر كل عدل وينبوع كل محبة . لم يترك ذاك الايمان الراسخ والمحبة العميقة والجهاد الخالص في خدمته ، دون مكافأة وتعزية حتى على هذه الارض .

ففي المجتمع نال اوزنام ببلاغته السامية واخلاصه التام نجاحاً علمياً وتقديراً لدى زملائه وتلامذته فوق ما كان يظن ويرجو هو نفسه . فكانت دروسه ومحاضراته احب شيء الى قلوبهم يقبلون عليها اقبالاً منقطع النظير ويقاطعونها بالتصفيق مرات ومرات . معجبين بمتانة خلق صاحبها ورسوخ عقيدته وغزارة علمه . ولم يكونوا يغضبون لتغيب استاذ او تخلفه عن الصف غير الاستاذ اوزنام حين يضطره ثقل المرض الى التخلف . حتى لقد اضطر مرة ان يقوم من فراشه ويجيء الى الصف مستنداً الى اكتاف اصحابه ليلبي رغبة الطلاب . فبلغ في تلك المحاضرة اسمى درجات البلاغة والحماسة . وكانت آخر دروسه .

ومكافأة اخرى اثمن من التصفيق والنجاح الدنيوي . بل اثمن من النجاح المعنوي في خدمة الدين وعمل المحبة . عنيت ذلك السلام الذي نعم به طول حياته . سلام وطمأنينة في عيلته ، سلام وطمأنينة مع الناس ، سلام وطمأنينة في حياته الداخلية . وفي الحق ، من الذي يستطيع ان يكون عنده ايمان مثل ايمانه واستسلام بين يدي العناية الالهية مثل استسلامه ومحبة مثل محبته ، ولا يكون السلام منتشراً في كل جوانب نفسه ؟ وكان هذا السلام ينمو عنده كلما تقدم في السن حتى بلغ الذروة العليا في ايامه الاخيرة. فقد احتمل اوجاعه وانتظر موته بهدوء ورضى يكاد يشبه الغبطة . وقد اجاب يوماً بهذه الكلمة البديعة الرفيعة على سذاجتها . وكان بعض ذويه يشجعه الا يخاف من عدل الله ورحمته : « كيف اخافه وقد طال ما احببته !» .

٥

اما المكافأة الصحيحة الجديرة بجهاده والتي منحه الله اياها في عالم الراحة والحق والنور بعد انطلاق نفسه من رباط الجسد ، فذلك سر من اسرار رحمته وحبه الالهيين . والكنيسة ما تزال تصلي ليظهر الله للناس ، متى رأى موافقاً ، سر حياة هذا الرجل البار ويسمح باعلان قداسته .

- ١٠ -

اذا كانت شبيبة عصرنا وبلادنا في حاجة الى فضيلة من الفضائل فانها حاجتها الى مثل ايمان اوزنام العميق المثمر . واذا كانت تشعر بالفراغ يمض حياتها ويدفعها الى السأم والقلق والخمول فلانها اهملت الرجوع الى المثل العليا التي تجيء من فوق وتجيء معها بالنور الذي يري الحقيقة ناصعة ويجيل الشك ايماناً والملال رسوخاً ، والقوة التي لا تستريح الا في النشاط ولا تعمل الا في الفلاح ، والمحبة التي تسر بالتضحية والبذل ، بعيداً عن اللذة الرخيصة والغبطة الكاذبة والفرح العابر السريع التارك وراءه سيلاً من الاسئلة التي لا تجد جوابها الا في محبة الله والاقبال على عبادته وقدرته .

ولعلّ مثال اوزنام — وما اقرب ايامنا من ايامه ! — يكون لهذه الشبيبة المثال الحافز والداعي المجاب والمصباح الذي لا يذهب ضياؤه سدى .

بيروت ٦ كانون الاول ١٩٥٣